من صور الإبداع الفكري والمنهجي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور رحمه الله

Descriptions of Intellectual and Methodological Creativity in Ibn ʻĀshūr's Qur'anic Exegesis *al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr*

Penerangan tentang Kebijaksanaan dan Metodologi Kreatif dalam Tafsir Ibn Anshur *Al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr*

رضوان جمال الأطرش*

الملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم تصور عام عن بعض صور من مجالات الإبداع الفكري والمنهجي في تفسير ابن عاشور، والتي وَسَمت منهجه بالتميز والعلوّ إلى حد ما عن غيره من المناهج التفسيرية. فالمدقق اليوم يجد أن البحوث التي كتبت في مجال التفسير – رغم كثرتها –، أحوج ما تكون إلى التعرف على نماذج من المناهج التفسيرية الرفيعة، توضع أمام الجيل الجديد من الباحثين، يطلع عليها، ويقتبس منها، ويستكشف فيها نواحي القوة والإبداع، فيحاول أن يحذو حذوها، ويأخذ نفسه بمناهجها.

الكلمات المفتاحية: إبداع، منهج، الإبداع المنهجي، ابن عاشور، تفسير.

Abstract

This study aims to present a general overview of some specimens of intellectual and methodological creativity in the Qur'anic exegesis of Ibn ʿĀshūr, that can be characterized as his excellence and acclamation compared to other interpretive methodologies. An assessor today may find that the works written in the field of Qur'anic interpretation—despite its abundance—still needs an admirable model of interpretive method that could be introduced to the new generation of researchers. These researchers after getting acquainted with such methods will deliberate on it,

* الأستاذ المشارك بقسم دراسات القرآن والسنّة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

E-ISSN: 2289-8077

unveil from it dimensions of strength and creativity, and henceforth align themselves with such methods following it steadfastly.

Keywords: Creativity, method, methodological creativity, Ibn ʿAshūr, *Tafsīr* (exegesis), interpretive method.

Abstrak

Kajian ini bertujuan untuk membincangkan gambaran umum tentang kebijaksanaan dan metodologi kreatif dalam tafsiran Al-Qur'an oleh Ibnu 'Ashūr, yang merupakan kecemerlangannya dan kejayaannya berbanding metodologi tafsiran lain. Seorang penilai hari ini mungkin mendapati bahawa karya-karya dalam bidang tafsir Al-Quran walaupun terlalu banyak ditulis, ianya masih memerlukan model tafsiran yang mampu diketengahkan kepada pengkaji generasi baru. Pengkaji-pengkaji ini selepas mengenali kaedah-kaedah tersebut akan membincangkannya, memperkenalkan dimensi kekuatan dan kreativiti, dan seterusnya menyesuaikan diri dengan kaedah sedemikian dan mengikutnya secara konsisten.

Kata Kunci: Kreativiti, kaedah, kreativiti metodologi, Ibn'Ashūr, Tafsīr (eksegesis), kaedah tafsiran.

تمهيد

اهتم العلماء المسلمون بشكل عام اهتماماً بالغاً بالقرآن الكريم، مما جعل التفسير يحتل مرتبة سامقة من حيث الكتابة والتأليف، ومن حيث لعب دور لا يستهان به في الإصلاح والتنوير. والمدقق في المؤلفات التفسيرية يجد أنها تحوي معظم الاتجاهات الفكرية للأمة المسلمة، وذلك لأن التفسير يتأثر بالواقع ويؤثِّر به، ويعبر بجلاء عن القضايا التي يعيشها المسلمون. وبشكل خاص، فقد برز في تونس مفسرون كثر، منهم يحيى بن سلام والإمام محمد بن عرفة، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور، الذي أطلق على تفسيره "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" وأوجزه رحمه الله في عبارة "التحرير والتنوير من التفسير"، حيث لم يظهر التفسير مطبوعاً بأكمله إلا سنة ١٩٨٤م.

منهج الدراسة

المنهج المتبع في هذه الدراسة يقوم على استقراء مطوَّل، وعبر عمليات متلاحقة من الدراسة لاستخلاص بعض صور من مجالات الإبداع الفكري والمنهجي في تفسير ابن عاشور في تناوله لآيات القرآن، والتي تشكلت شخصية المؤلف من خلالها. ثم نستخلص ذلك النسيج المنطقي الذي ربط بين مجالات الإبداع في مختلف أجزاء تفسير التحرير والتنوير. هذا وقد تمت بعض المحاولات لدراسة المنهج عند ابن عاشور مثل دراسة الأستاذ الصحبي العتيق، في كتابه **التفسير والمقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**،[1] حيث قدم لنا صورة – لا بأس بها – عن منهج ابن عاشور، رغم عدم شمولية هذه الدراسة، وقدم الأخ عبد الرحمن لنا دراسة عن أصول الإصلاح الاجتماعي والفكري عند ابن عاشور، لكنه – في تصوري – كان قاسياً على الشيخ، وقامت هيا ثامر بكتابة رسالة ماجستير بعنوان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسير التحرير والتنوير، وسأحاول أن لا أكون مقلداً.

إيضاحات لمصطلحات البحث

الإبداع لغة: جاءت كلمة الإبداع من الفعل الثلاثي بدَع، يقول ابن منظور: "بدع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه أَنشأَه، والبَدِيعُ والبِدْعُ الشيء الذي يكون أَوّلاً وفي التنزيل: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف:٩] أَي ما كنت أَوّلَ من أُرْسِلَ قد أُرسل قبلي رُسُلٌ كثير، والبِدْعةُ: الحَدَث، وما ابْتُدِعَ من الدِّينِ."[2]

---

[1] الصحبي العتيق، **التفسير والمقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**، (تونس: دار السنابل للثقافة والعلوم، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)،

[2] محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، د.ت) ج٨، ص٦.

الإبداع اصطلاحاً: وعلى هذا يكون الإبداع: هو الإتيان بشيء على غير مثال سابق، وهو الإنشاء، أي إنشاء الأشياء من العدم دون أن يكون لها مثال سابق.

أو هو الخروج عن المألوف الموروث إلى غير المألوف، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن الإبداع في حد ذاته، لا يمكن أن يأتي بدون سابق إنذار، بل هو وليد الأفكار الناتجة عن تفكير عميق، فالتفكير هو البداية، ولا يستطيع أحد أن يعمل أو يبدع بدون أن يفكر، وبقدر سمو هذا التفكير تسمو الأعمال.

أو هو تفكير تحكمه معايير وقواعد المنطق وقدرة تزدهر وتنمو بفضل مقومات وشروط سلوكية معينة.

المنهج لغة: وردت في القرآن الكريم كلمة منهاج في قوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[سورة المائدة:٤٨]. وجاء في معجم مقاييس اللغة من معاني كلمة نهج: "النهج هو الطريق، ونهج لي الأمر أي أوضحه، وهو مستقيم المنهاج، والمنهج الطريق أيضاً والجمع مناهج."[٣] يقول ابن عاشور: "والمنهاج الطريق الواسع، وهو هنا تخييل، أريد به طريق القوم إلى الماء، كقول ابن الخطيم:

وأتبعت دلوي في السماح رِشاءها

فذكر الرشاء مجرد تخييل. فمنهاج المسلمين لا يخالف الاتصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، ومنهاج غيرهم منحرف عن دينهم، كما كانت اليهود قد جعلت عوائد مخالفة لشريعتهم، فذلك كالمنهاج الموصِّل إلى غير المورود. وفي هذا الكلام إبهام إريد به تنبيه الفريقين إلى الفرق بين حاليهما، وبالتأمل يظهر لهم."[٤]

---

[٣] أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د.م: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج٥، ص٣٦١.

[٤] سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور** (بيروت: مؤسسة التاريخ، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج٥، ص ١٢٥.

المنهج اصطلاحاً: هو خطة عملية لها معالم واضحة من معارف وحقائق ومفاهيم منظمة، تستوعب الواقع وتمثله بكل ما فيه من ماض وحاضر ومتغيرات وتهدف إلى رفع المستوى بشكل شامل.

أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عالمين. فالمنهج في البحث يعني كيفية استعمال المعلومات استعمالاً صحيحاً، في أسلوب منطقي متسلسل، متمثلاً في العناصر التالية: أسلوب العرض، والمناقشة الهادئة، التزام الموضوعية التامة، تأييد القضايا المعروضة بالأمثلة والشواهد المقنعة دون إجحاف أو تحيز، قصداً للتوصل إلى النتيجة، أو النتائج المطلوبة.

وعلى المستوى التفسيري فإن ابن عاشور ومن خلال ملاحقة أسلوبه المنهجي استطعنا أن نتعرف على عناصر المنهج التفسيري عنده بالآتي: أولاً: المفسر، ثانياً: القرآن، ثالثاً: المجتمع الإنساني الذي ينتمي إليه ويعيش فيه المفسر، رابعاً: الواقع بما فيه من قضايا وهموم ومشاكل تحتاج للتعامل معها من خلال التفاعل المركب الدائم النشط بين هذا العناصر دون ضغوط خارجية، خامساً: الأيدلوجية التي يتبناها المفسر. لأن المنهج ينتج من خلال المخزون الهائل من الأفكار والخبرات والمعارف الأكاديمية التي يتبناها المفسر، يوجهها إلى الناس بمهارة، ويحاول إقناعهم بصلاحيتها.

الإبداع المنهجي: خطوات عملية مهذبة سامية فيها خيال خصب، وتفكير منطقي، وعمل منظم، وتحليل علمي موضوعي، ومناقشة هادئة ونظرة واقعية، ومنهج قويم، وأدب جم، يلتزم بها الكاتب أثناء تناوله للأفكار المتفقة والمخالفة حتى يكون عنده إبداع منهجي.

نبذة تعريفية عن حياة الشيخ ابن عاشور

أولاً: مولده: شهد زمن ابن عاشور[٥] سقوط الخلافة الإسلامية، وبروز ظاهرة الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، وما انجر عن ذلك من تمزق ثقافي دام قرابة القرنين، إضافة إلى ركام التخلف الذي تراكم عبر القرون، غير أن ما يميز عصر ابن عاشور أيضا ذلك الجانب المضيء منه؛ والمتمثل في جهود التجديد التي انطلقت على أيدي الأفغاني وعبده وتلاميذهما منذ نهاية القرن الميلادي الماضي، ويعتبر ابن عاشور أحد تلاميذ هذا الخط التجديدي، الذي حاول بعث بذور الوعي في الأمة على مختلف المستويات، فأفرز الاستقلال السياسي.

نشأ ابن عاشور في وسط علمي، حيث تعلم الفرنسية، ودخل جامع الزيتونة الأعظم، وطلب الفقه، والتفسير، واشتغل بالعربية، واعتبر حجة في اللغة. ولعل الفضل يرجع في سعة ثقافة ابن عاشور إلى شيوخه الكبار وعلى رأسهم "الشيخ سالم بو حاجب والشيخ عمر بن الشيخ والشيخ محمد النجار والشيخ محمد بن يوسف والشيخ محمد النخلي وعمر بن عاشور وصالح الشريف"[٦]. لقد كان ابن عاشور يعيش واقعه، مستوعباً لكل المحاولات الإصلاحية النهضوية التي قام بها الدهلوي ومحمد بن عبد الوهاب، والأفغاني ومحمد عبده، رغم اختلافها في الوسائل، ولكنها "تتفق في مقاومة الانحطاط والتمزق والانحراف"[٧] الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية. ناهيك عن تأثر الشيخ بآراء

---

[٥] ولد العلامة ابن عاشور في جمادي الأولى ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م، وكان رحمه الله في ابتداء أمره يعيش في ضاحية المرسي من أحواز تونس الشمالية، ومنذ ولادته كفله جده لأمه الشيخ محمد العزيز بوعتور، ولما بلغ السادسة من عمره بدأ تعلم القراءة، وحفظ القرآن في المنزل، وهذه عادة أمثاله المنحدرين من العائلات العلمية والثرية بالبلاد آنذاك، إذ أن جده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كان عالماً، وتقلد مناصب كبيرة: كالإفتاء والقضاء والتدريس والإشراف على الأوقاف الخيرية. انظر: الصحبي العتيق، **التفسير والمقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**، (تونس: دار السنابل للثقافة والعلوم، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ص: ١٣.

[٦] الصحبي العتيق، **التفسير والمقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**، ص١٤.

[٧] نفس المصدر والصفحة.

محمد عبده في مجالات التربية والتعليم والإصلاح الاجتماعي الهادىء. وعرف ابن عاشور بصلته العلمية مع المستشرق أوبناهيم، مما أكسبه رؤية شاملة للأمور، ودفعه لمزيد من البحث والتعمق، وخاصة في مجال الأديان ومقارنتها، والفلسفة والتاريخ.[٨]

ثانياً: من مواقفه البطولية: صدق الله وكذب بورقيبة.

ومن المواقف الهادية المشهورة للطاهر بن عاشور رفضه القاطع حين أمره بورقيبة أن يصدر فتوى تبيح الفطر في رمضان، وكان ذلك عام (١٣٨١ هـ = ١٩٦١م) عندما دعا "الحبيبُ بورقيبة" الرئيسُ التونسي السابق العمالَ إلى الفطر في رمضان بدعوى زيادة الإنتاج، وطلب من الشيخ أن يفتي في الإذاعة بما يوافق هذا، لكن الشيخ صرح في الإذاعة بما يريده الله تعالى، بعد أن قرأ آية الصيام، وقال بعدها: "صدق الله وكذب بورقيبة،" فخمد هذا التطاول المقيت وهذه الدعوة الباطلة بفضل مقولة ابن عاشور.[٩]

ثالثاً: وفاته: انتقل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى جوار ربه، يوم الأحد ٣ رجب ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م، وخسر العالم علماً عظيماً من أعلام المعرفة والعلم، نسأل الله له الرحمة.[١٠]

رابعاً: أسباب تأليفه لهذا السفر العظيم: كتاب التحرير والتنوير:

علل **فضيلة** الشيخ محمد الحبيب بن خوجة دواعي تأليفه لهذا الكتاب القيم "حب الانتساب إلى الأئمة العلماء، والاقتداء بأهل التحقيق منهم، بالإسهام في خدمة هذا العلم، والإشتغال بما ينفع العامل في هذا الحق في دنياه وأخراه، وبالحرص على التوصل إلى ما يمكن إضافته من أنظار وآراء تتصل بأغراض القرآن الكريم."[١١] وأظن أن

---

[٨] نفس المصدر والصفحة. بتصرف بسيط.

[9] http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/09/article30_01.shtml

[١٠] نفس المرجع، ص١٩.

[١١] محمد الفاضل بن عاشور، **التفسير ورجاله**، قدم له وذيله: فضيلة الشيخ محمد الحبيب بن خوجة، (تونس: دار سحنون، ١٩٩٨/١٩٩٩م) ص٢٣٢-٢٣٣.

فضيلة **الشيخ محمد الحبيب بن** خوجة كان على حق، فابن عاشور قد صرح بهذا في مقدمة كتابه، فقال: "أما بعد: فقد كان أكبر أمنيتي من أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدنيا والآخرة، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم، ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعاً في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسّره."[١٢]

من صور الإبداع في تفسير ابن عاشور

أولاً: نظرة الشيخ العلمية الإبداعية لعلم التفسير: ينظر ابن عاشور إلى التفسير على أنه يمر بمحنة، وخصوصاً لما تصدره علماء في وقتٍ ضعُف فيه الذوق العربي، وذلك بكثرة الدخلاء من فتوح الإسلام[١٣]، ولهذا لم يكن يعد التفسير علماً[١٤] إلا بعد أن رآه معدوداً في مقدمة العلوم، ولأنه منبع العلوم الشرعية، ولأن تأخره سبب في تأخر كثير من العلوم الإسلامية، خصوصاً الفقه والنحو واللغة، قال: "فأحببت أن أتابع العلماء وعد التفسير علماً."[١٥] ولهذا تم تدوينه لما ضعفت اللغة العربية بين أكثر المسلمين بسبب كثرة الدخلاء فيها، والعلم بأهمية فهم الأمة للقرآن الكريم.[١٦]

ولكنهم عدوا تفسير ألفاظ القرآن علماً مستقلاً، أراهم فعلوا ذلك من وجوه ستة:

---

[١٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٥.

[١٣] الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، قرأه ووثق شواهده وقدم له: د. محمد الطاهر الميساوي، (كوالالمبور: دار التجديد، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٣٧.

[١٤] ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، ص ٢١٥.

[١٥] ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، ص ٢١٥.

[١٦] نفس المرجع والصفحة.

الأول: لأنه يستنبط من مباحثه علوم كثيرة وقواعد كلية، ولا شك أن ما تستخرج منه القواعد الكلية والعلوم أجدر بأن يعد علماً.

الثاني: لا يشترط في مسائل العلوم الشرعية والأدبية أن تكون قضايا كلية، بل يكفي أن تكون مباحثها مفيدة كمالاً علمياً لمُزاولها، والتفسير أعلاها في ذلك.

الثالث: إن التعاريف اللفظية تصديقات، لأنها تؤول إلى قضايا، وتفرُّع المعاني الجمة عنها نزلها منزلة الكلية، والاحجاج عليها بشعر العرب وغيره، يقوم مقام البرهان على المسألة، وهذا الوجه يشترك مع الوجه الأول في تنزيل مباحث التفسير منزلة المسائل.

الرابع: إن علم التفسير لا يخلو من قواعد كلية في أثنائه مثل تقرير قواعد النسخ عند تفسير قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٩٦] وتقرير قواعد التأويل عند تقرير: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ**﴾ [آل عمران:٧] وقواعد المحكم والمتشابه عند تقرير: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧] فسمي مجموع ذلك، وما معه علماً تغليباً.

الخامس: أن حق التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع، وكلياته، فكان بذلك حقيقاً بأن يسمى علماً.

والسادس: أن التفسير كان أول ما اشتغل به علماء الإسلام، قبل الاشتغال بتدوين بقية العلوم، وفيه كثرت مناظراتهم، وكان يحصل من مزاولته لصاحبه ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقائق نظمه، فكان بذلك مفيداً علوماً كلية لها مزيد اختصاص بالقرآن المجيد، فمن أجل ذلك سمي علماً.

لكننا نجد ابن عاشور يصرح بأن التفسير رأس العلوم الإسلامية، لأنه في نظره أصل لعلوم الإسلام على وجه الإجمال، فأما مسألة استمداده من بعض العلوم

الإسلامية، فذلك استمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، كما أنه يعتبره أصل لما استمد منه.[١٧]

أما تعريف ابن عاشور للتفسير، فقد عرفه بما يلي: قال: هو اسم للعِلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها باختصار أو توسع. والمناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه لا يحتاج إلى تطويل.[١٨]

الأسباب التي جعلت التفسير تقيّد فهم القرآن وتضيّق معانيه

السبب الأول: التقليد الأعمى والولع بالتوقيف والنقل، اتقاءً للغلط، وزجراً للعامة عن الوقوع فيه بدون تأهل. لكن الخواص وصل إليهم هذا الوهم، فأصبحوا ينقلون الضعيف والكذب، ويبعدون عن التفسير بالرأي ولو كان صواباً. لأنهم توهموا أن مخالفة السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله منه.

السبب الثاني: الضعف في اللغة والبلاغة، وقال: وقليل المبرز فيهما إلا مثل الزجاج والزمخشري وابن عطية وأبي علي الفارسي. كما ساهم في ذلك ضلال الباطنية والإسماعيلية وأتباعهم من الصوفية الذين زعموا أن القرآن إشارات وفسروا بها معانيه. كما حرف غلاة الشيعة الكلم عن مواضعه في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢] فقرأوها إن علياً للهدى. وضرب أمثلة كثيرة.

السبب الثالث: الضعف في علوم يظنونها بعيدة عن القرآن، وهي ضرورية لمعرفة عظمى العمرانية، مثل: التاريخ، وفلسفة العمران، والأديان والسياسة.

السبب الرابع: خروج بعض التفاسير عن ذكر العلوم التي لها تعلق بفهم الآية إلى مسائل من علوم متنوعة ضعيفة المناسبة بموضوع تفسير تلك الآية، كما فعل الفخر

---

[١٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٢٥.

[١٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص١٠.

الرازي في التفسير الكبير فجاء كتاباً بعيداً عن غرض المفسر[١٩]. ثم بين للقارئ المنهج الصحيح والأسلم لإصلاح علم التفسير في تفسير القرآن، والذي وصفه بأنه لا غنى عنه لدارس ولا لباحث ينظر في كلام الله، وذلك من خلال اتباع الخطوات التالية:

١. أن تفسر التراكيب القرآنية جرياً على تبيين معاني الكلمات القرآنية، بحسب استعمال اللغة العربية، ثم أخذ المعاني من دلالة الألفاظ والتراكيب وخواص البلاغة.
٢. ثم اسخلاص المعاني المدلولة منها بدلالات المطابقة والتضمن والالتزام، مما يسمح به النظم البليغ، ولو تعددت المحامل والاحتمالات.
٣. ثم نقل ما يؤثر عن أئمة المفسرين من السلف والخلف، مما ليس مجافياً للأصول ولا للعربية.
٤. أن يتجنب المفسر الاستطراد والاندفاع في أغراض ليست من مفادات تراكيب القرآن، فيجعل الآيات منافذ يخرج منها إلى أغراض دعائية أو مذهبية أو حزبية، حتى تصير الآيات القرآنية عناوين لمقالات صحفية.
٥. وأن لا يقتصر المفسر على تبيين المعنى بحيث يصير التفسير بمنزلة ترجمة كلام من لغة إلى لغة أخرى[٢٠]

ثاني صور منهجه الإبداعي في تفسيره

[١٩] ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، ص ٢١٧-٢٢١. بتصرف.

[٢٠] ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، ص ٢٢١-٢٢٢.

مقدماتُه العشر، عادة من يذكر المفسرون مقدمة واحدة، ولكن الشيخ ذكر في تفسيره عشر مقدمات، ذكر فيها عدداً من المسائل المتعلقة بالتفسير وأدواته، حيث جعل مقدماته على هذا النحو:

المقدمة الأولى: وهي بعنوان: **في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً**: حيث بدأها بتعريف التفسير لغة واصطلاحاً ثم تكلم عن التفسير بوصفه أول العلوم الإسلامية ظهوراً، وذكر أسماء أول المصنفين فيه، وذكر منهم: عبد الملك بن جريج المولود سنة ٨٠هـ والمتوفى سنة ١٤٩هـ، وبين الفرق بين التفسير والتأويل، وهل هو مساوٍ للتفسير أو أخص منه أو مباين؟

المقدمة الثانية: وهي بعنوان "**في استمداد علم التفسير**". فقد بين المراد باستمداد العلوم، وأنه يراد بها: توقف العلوم على معلومات سابقٍ وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونيه، لتكون عوناً لهم على إتقان تدوين ذلك العلم، وقال: وسمي ذلك في الاصطلاح بالاستمداد عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد. ثم تكلم عن استطرادات الفخر الرازي، فقال: "وأما ما يورد في العلم من مسائل علوم أخرى عند الإفاضة في البيان، مثل كثير من إفاضات الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب" فلا يعد مدداً للعلم" ثم حصر هذه الاستمدادات: بالعربية، وعلم الآثار، وأخبار العرب، وأصول الفقه، وقيل: علم الكلام وعلم القراءات[٢١]. والغريب أنه لم يعد الفقه من هذه الاستمدادات، كما فعل السيوطي، وذلك لعدم توقف فهم القرآن على مسائل الفقه، فإن علم الفقه متأخر عن التفسير وفرع عنه، وإنما يحتاج المفسر إلى مسائل الفقه عند قصد التوسع في تفسيره، للتوسع في طرق الاستنباط، وتفصيل المعاني تشريعاً وآداباً وعلوماً. والإمام البيضاوي، كان أكثر تشدداً من الإمام ابن عاشور، حيث قال عن استمدادات علم التفسير، " لا يليق لتعاطي التفسير، والتصدي للتكلم فيه، إلا من برع

[٢١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ١٦.

في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها، وفي الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها". ومن الإبداعات التي تدل على دقة فهمه لموضوع التفسير، أنه لم يجعل الآثار المروية عن النبي ﷺ في تفسير آيات، ولا ما يروي عن الصحابة في ذلك، لأن ذلك من التفسير، لا من مدده، ولا يعد أيضاً من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضاً آخر منها، لأن ذلك من قبيل حمل الكلام على بعض، كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل، وتأويل الظاهر... وغير ذلك.

المقدمة الثالثة: وهي بعنوان "في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه". ناقش فيها الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:"من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" وفي رواية:"من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"[٢٢]، وكذلك ناقش حديث أبي داود والترمذي والنسائي الوارد عن رسول الله ﷺ، بقوله:"من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"[٢٣] ثم مقولة أبي بكر الصديق ﷺ حينما سئل عن تفسير الأب في قوله تعالى: ﴿**وفاكهة وأبا**﴾ [عبس: ٣١]: "أي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي"[٢٤] ومما ذكره رحمه في الرد على الذي يستدلون بهذه الأحاديث على حرمة التفسير بالرأي، قال برد عقلي: "قلت: أراني كما حسِبتُ أُثبِتُ ذلك وأُبيحه، وهل اتسعت التفاسير وتفننت مستنبطات معاني القرآني إلا بما رُزقه الذي أوتوا العلم من فهم في كتاب الله؟ وهل يتحقق قول علمائنا: "إن القرآن لا

---

[٢٢] رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. رقم:2950، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م)، ج٥، ص٤٩.

[٢٣] رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. رقم:٢٩٥١، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. الترمذي، **سنن الترمذي**، ج٥، ص٤٩.

[٢٤] أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، **البحر المديد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) ج٤، ص٤٩. وانظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٢٦.

تنقضي عجائبه"[٢٥] إلا بازدياد المعاني باتساع التفسير؟ ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصراً في ورقات قليلة. وقد قالت عائشة:"ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات، علمه جبريل إياهن"[٢٦]. ثم رد على هذه الشبهة التي نشأت نتيجة لعدم فهم الآثار المروية المحذرة من تفسير القرآن بالرأي، وقال إن مرجع سوء الفهم هذا إلى خمسة وجوه:

الأول: أن المراد بالرأي هو القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر في أدلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريفها، وما لا بد منه: من معرفة الناسخ والمنسوخ، وسبب النزول، فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ في تصوره بلا علم، لأنه لم يكن مضمون الصواب كقول المثل: "رمية من غير رام"، وهذا كمن فسر ﴿**الم**﴾ بقوله: إن الله أنزل جبريل على محمد بالقرآن، فإنه لا مستند لذلك. وأما ما روي عن الصديق ﷺ، فذلك من الورع خشية الوقوع في الخطأ، في كل ما لم يقم له فيه دليل، أو في مواضع لا تدع الحاجة إلى التفسير فيها.

الثاني: أن لا يتدبر القرآن حق تدبره، فيفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير، مقتصراً على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو من وجه العربية فقط، كمن يقول في قوله تعالى: ﴿**وآتينا ثمود الناقة مبصرة**﴾ [الإسراء:٥٩] فيفسر مبصرة بأنها ذات بصر، لم تكن عمياء، فهذا من الرأي المذموم.

الثالث: أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة، فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد، ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيَّد عقله من التعصب،

---

[٢٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٢٦.

[٢٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٢٦.

عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه، كتفسير المعتزلة لقوله تعالى: ﴿**إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة:٢٣] بمعنى أنها تنتظر نعمة ربها. وهذا خروج عن الظاهر وعن المأثور وعن المقصود من الآية. وقالت البيانية في قوله تعالى: ﴿**هذا بيان للناس**﴾ إنه بيان بن سمعان كبير مذهبهم.

الرابع: أن يفسر القرآن برأي مستند إلى ما يقتضيه اللفظ، ثم يزعم أن ذلك هو المراد دون غيره، لما في ذلك من التضييق على المتأولين.

الخامس: أن يكون القصد من التحذير، أخذ الحيطة في التدبر والتأويل، ونبذ التسرع إلى ذلك، وهذا مقام تفاوت العلماء فيه، واشتد الغلو في الورع ببعضهم حتى كان لا يذكر تفسير شيء، غير عازيه إلى غيره. كالأصمعي، الذي كان لا يفسر كلمة من العربية إذا كانت واقعة في القرآن.

فالشيخ على العموم يجيز الأخذ بالتفسير بالرأي ويؤكد ضرورته، وذلك من خلال رده الحاسم على من أساء فهم هذه الآثار المروية.

المقدمة السابعة: قصص القرآن: قال في بداية هذه المقدمة: "امتن الله على رسوله ﷺ بقوله: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ [يوسف:٣]. فعلمنا من قوله: ﴿أَحْسَنَ﴾ أن القصص القرآنية لم تُسق مساق الإحماض (أي الإيناس) وتجديد النشاط، لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا[٢٧]. ثم قال: وأبصَرَ أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصراً على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم، أو التشويه بأصحابها، فيما لقوه من غضب الله عليهم، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل. إن في تلك القصص لَعِبراً جمة وفوائد للأمة، ومن مميزاتها: طي ما يقتضيه الكلام الوارد، كقوله تعالى في سورة

[٢٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٦٣.

يوسف ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ**﴾ [يوسف:٢٥] فقد طوي ذكر حضور سيّدها، وطرقه الباب، وإسراعهما إليه لفتحه، فإسراع يوسف ليقطع عليها ما توسمه فيها من المكر به لتُري سيدها أنه همَّ بها سوءاً، وإسراعها هي لضد ذلك لتكون البادية بالحكاية، فتقطع على يوسف ما توسمته فيه من شكاية، فدل على ذلك ما بعده من قوله: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [يوسف:٢٥]. ومن هذه المميزات: أن القصص بُثت بأسلوب بديع، إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن، من تشريع وتفريع. **فتوفرت من ذلك عشر فوائد:**

الفائدة الأولى: أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر، كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [هود:٤٩]. فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود. وبذلك انقطت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطت ألسنة المعرّضين بهم بأنهم أمة جاهلية، **وهذه فائدة لم يبينها مَن سلَفَنا من المفسرين.**

الفائدة الثانية: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء، وأقوامهم تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين، قال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ [آل عمران:١٤٦]. **قال: "وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضاً**. وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ

الإيمان وضعفه، وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان. وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم، إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم. ففي قصة أصحاب الكهف لم يذكر أنهم من أي قوم وفي أي عصر.

الفائدة الثالثة: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، قال تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [النمل:٥٢] وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة، وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين، بما لحق الأمَم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها، حتى يرعَوُوا عن غُلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يُورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين، قال تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٦] وهذا في القصص التي يُذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل، كقصص: قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم.

الفائدة الخامسة: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهوداً للعرب، فكان مجيؤه في القرآن ابتكارَ أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن، إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع، ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه.

الفائدة السادسة: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية، وجهلوا معظمها، وحهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضاً عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك مَن قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال

مشيراً إلى غفلتهم قبل الإسلام: ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ**﴾ [إبراهيم:٤٥].

الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها، حتى تُدفع عنهم وصمة الغرور، كما وعظهم الله في قوله تعالى عن قوم عاد: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ [فصلت:١٥]، فإذا علمت الأمم جوامع الخيرات، وملاءمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها، مما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة: أن يُنشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم، ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب، إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً.

الفائدة التاسعة: معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء: من الاستعداد والاعتماد، سلموا من تسلط غيرهم عليهم. وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير. وكيف ينصرهم الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

الفائدة العاشرة: أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة، وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية، كقوله تعالى: ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ**﴾ [يوسف:٧٩]. يدل على أن

شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل في الاسترقاق، وأن الحر لا يُملك إلا بوجه معتبر[٢٨].

ثم تكلم عن سر تكرار القصص في القرآن الكريم، وذلك لحصول المقاصد التالية:

أ. رسوخها في الأذهان بتكريرها.

ب. ظهور البلاغة. فإن تكرار الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يَثقُل على البليغ. والقرآن مملوء بتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة باستعمال المترادفات، مثل: ﴿**وَلَئِن رُّدِدتُّ**﴾ [الكهف:٣٦] ﴿**وَلَئِن رُّجِعْتُ**﴾ [فصلت:٥٠].

ج. أن يسمع اللاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن ذكر القصة التي كانت فاتتهم مماثِلَتُها قبل إسلامهم، أو في مدة مغيبهم، فإن تلقي القرآن عند نزوله أوقع في النفوس من تطلبه من حافظيه.

د. أن جمع المؤمنين جميع القرآن حفظاً كان نادراً، بل تجد البعض يحفظ بعض السور، فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذُكرت فيها قصة معينة عالماً بتلك القصة. كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة.

هـ. أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة، ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر، وذلك لأسباب:

منها تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيُقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمالُ القصة أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض.

---

[٢٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٦٤-٦٧. بتصرف بسيط.

ومنها أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسباً للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكراً لبعض القصة في موضع وتجد ذكراً لبعض آخر منها في موضع آخر، لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سيقت له، فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى، ألا ترى قصة بَعْث موسى، كيف بُسطت في سورة طه، وسورة الشعراء، وكيف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا**﴾ [الفرقان:٣٥-٣٦].

ومنها أنه يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك. ثم يقول معلقاً: "فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة، وربما كانت بعض معانيها في كلام السابقين غير صريحة"[٢٩].

المهم في المسألة أن الشيخ حاول جهده في رواية القصص الجادة والصحيحة، ولذلك تراه يقول بعد نهاية تفسيره لسورة الكهف: "وهنا انتهت قصة أصحاب الكهف بما تخللها وقد أكثر المفسرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها"[٣٠]. ونفس الشأن قال ذلك في قصة سبأ، لكن الشيخ لم يلتزم بمنهج الصحة في رواية القصص، ولذلك تراه يعتمد على المراجع اليهودية والنصرانية، فحين ففي قصة مريم يقول: "وفي إنجيل لوقا: أنها ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهودية، حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار، إذ كان مطلوباً للحضور بقرية أهله لأن ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلا،

---

[٢٩] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص ٦٨.

[٣٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٥، ص٥٣.

وهوظاهر قوله تعالى: ﴿**فأتت به قومها تحمله**﴾ [مريم:٢٧]،[٣١]. والعذر الذي يمكننا أن نسامح فيه الشيخ، أنه يحاول أن يجمع عدداً لا بأس به من المصادر، فيذهب إلى القرآن، فيفسر القرآن بالقرآن، والسنة والتاريخ، وقلة المصادر حول القصص القرآنية وتوفرها في المصادر التاريخية المملوءة بالأساطير، والتي يشتبه فيها الصحيح بالموضوع، والأصيل بالدخيل ربما ساهم في خروج الشيخ عن منهجه.

ومن صور الإبداع التي برزت في تراث الشيخ ابن عاشور حديثه عن مبتكرات القرآن وعاداته وتقديم نماذج تشهد لذلك

المقصود بمبتكرات القرآن: هي تلك الأساليب الجديدة المبدعة التي جاء بها القرآن كأسلوب خارق للعادة، ومألوف العرب والشعر والأدب العربي. ولهذا فهو يطالب المفسر بأن تكون مهمته معرفة مبتكرات القرآن وعاداته: ومن مهمات التفسير: معرفة عرف القرآن والمعهود من معانيه واستعمالاته. يقول رحمه الله: هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب.

منها: **أنه جاء بأسلوب يخالف الشعر** لا محالة وقد نبه عليه العلماء المتقدمون. ويضيف ابن عاشور على ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، وجاء بطريقة كتابٍ يُقصد من ترتيبه: حفظه وتلاوته، وهو من وجوه إعجازه وكيفية ذلك:

- **الجمل القصيرة:** أنه جاء بالجمل القصيرة البلاغية الدالة على معان كثيرة ومفيدة.
- **أسلوب التقسيم والتسوير:** أنه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير (سورة) وهي سنة جديدة في الكلام والأدب العربي.

---

[٣١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٦، ص٢٤.

- **الأسلوب القصصي**: أنه **جاء بالأسلوب القصصي** في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وقد كان لذلك تأثير عظيم في نفوس العرب، إذ كان فن القصص مفقوداً من أدب العربية إلا نادراً.
- **صياغة الكلمات غير العربية**: وإذا حكى أقوالاً غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية.
- **التصرف**: وإذا حكى أقوالاً عربية تصرف فيها تصرفاً يناسب أسلوب المعبر، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية. ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص، فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل: تغيير شاؤول إلى طالوت، وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى آزر.
- **ضرب الأمثال**: أنه استخدم التمثيل حيث كان في أدب العرب متوفراً (أقصد ضرب الأمثال)، وهي حكاية أحوال مرموز لها، إلا أنها لما تداولتها الألسن وطال عليها الأمد نسيت. أما القرآن فقد أوضح الأمثلة وأبدع تركيبها والأمثلة في القرآن عديدة. [٣٢]
- **تعدد الأساليب بشكل متفنن**: لم يلتزم القرآنُ أسلوباً واحداً، واختلفت سوره وتفننت، وكذلك فواتحها وهي قريب مما يعبر عنه في العربية بالمقدِّمات.

[٣٢] انظر: د. رضوان جمال الأطرش، **رسالة في الإعجاز القرآني، موضوع فنون فواتح السور**، (د.م: د.ت)، ص١٦٠-١٦٣.

- **الإيجاز**: وكان الإيجاز في كلام العرب متنافسهم وهو غاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدع من ذلك كله. ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن[٣٣].
- **ومن تعبيرات القرآن بالنفس وإرادة الغير**: قال تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ [النور:٦١]. والمعنى: فليسلّم بعضكم على بعض، وهم أهل البيوت التي يدخلونها؛ لأنهم بمنزلة أنفسهم في شدة المحبة والمودة والألفة، ولأنهم منكم في الدين، فكأنكم حين تسلمون عليهم تسلمون على أنفسكم، وقد أنكر الشيخ ابن عاشور على من فهم من الآية أن الداخل يسلم على نفسه، فقال: "فالأنفس مراد بها الأشخاص"[٣٤]. ثم قال في موطن آخر: "أي يسلم الداخل على الجالس"[٣٥]. أو على الناس الذين بالبيوت[٣٦]، ثم تراه يضيف معنى آخر في موطن آخر: "ولك أن تجعل الأنفس هنا بمعنى: "بني أنفسكم، أي بني قومكم"[٣٧]. ثم استنكر كل من فسر الأنفس على ظاهرها فقال: "ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ، وأهملوا دقيقته؛ فظنوا أن الداخل يسلم على نفسه إذا لم يجد أحداً، وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب"[٣٨]. وهذا كقوله تعالى: ﴿**وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾

---

[٣٣]انظر: د. رضوان جمال الأطرش، **رسالة في الإعجاز القرآني، موضوع باب الإيجاز**، ص١٥٥-١٦٠.

[٣٤]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٤٨٦.

[٣٥]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٤، ص٦٩.

[٣٦]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٣، ص١٧٥.

[٣٧]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٤، ص٢٤٨.

[٣٨]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٨، ص٢٤٣.

[الحجرات:١١] أي يلمز بعضكم بعضاً، ثم يستشهد بما روي أن أبا أيوب الأنصاري لما بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءا؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير مني وصفوان خير منك. قال: نعم.

اعتناؤه بالنكت واللطائف البلاغية: فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ**﴾ [البقرة:٧]. يقول: "وقد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن، هي: أن القلوب كانت متفاوتة، واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان، والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت. وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً، وإنما يتفاوتون في تدبره، والتدبر من عمل العقول، فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً."[٣٩]

"وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع

---

[٣٩] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٢٥٢.

ترد إلى الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة."[٤٠]

الاعتماد على السياق في فهم المقصود من الآيات القرآنية، هذا جانب أبدع فيه ابن عاشور، فهو عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. قال رحمه الله:"هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد، وتفنيد المنافقين في مزاعمهم، أن الناس لو استشاروهم في القتال، لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا، فبعد أن بين لهم ما يدفع توهمهم أن الانهزام كان خذلاناً من الله وتعجبهم منه كيف يلحق قوماً خرجوا لنصر الدين، وأن لا سبب للهزيمة بقوله: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثم بين لهم أن في تلك الرزية فوائد بقول الله تعالى: ﴿**لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٣] وقوله: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:]١٦٦ ثم أمرهم بالتسليم لله في كل حال، فقال: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ**﴾ [آل عمران: ١٦٦] وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وبين لهم أن قتلى المؤمنين الذين حزنوا لهم، إنما هم أحياء، وأن المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم لا يضيع الله أجرهم ولا فضْلَ ثباتهم، وبين أن سلامة الكفار لا ينبغي أن تُحزن المؤمنين ولا أن تسر الكافرين، وأبطل في خلال ذلك مقال المنافقين بقوله: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٤] وبقوله: ﴿**الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا**

---

[٤٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٢٥٤.

مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] ختم ذلك كله بما هو جامع للغرضين في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥] لأن المصيبة والحزن إنما نشآ على موت من استشهد من خيرة المؤمنين، يعني أن الموت لما كان غاية كل حي، فلو لم يموتوا اليوم لماتوا بعد ذلك فلا تأسفوا على موت قتلاكم في سبيل الله، ولا يفتنكم المنافقون بذلك"[٤١]. وللزيادة في الأمثلة يمكن الرجوع إلى المواطن التالية.[٤٢]

الاهتمام بالمناسبة لتفسير الآيات القرآنية: من جوانب الإبداع عند ابن عاشور، اهتمامه بالمناسبات بين الآيات والسور، يقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**﴾ [النبأ: ٦] "ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض، أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض، فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث أي بعث أهل القبور"[٤٣]. وهكذا يستمر حين يفسر قوله تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ [النبأ: ٧] ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض، وتشبيهها بالمهاد الذي يكون داخل البيت، فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع مع ذكر المهاد، كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية، فشبهت جبال الأرض، بأوتاد البيت تخييلاً للأرض، مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده. وأيضاً، فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض، قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهاداً، فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحاً بمنزلة حسن الاعتذار"[٤٤]. وأما تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا**﴾ [النبأ: ١٢] قال:"ناسب بعد ذكر

---

[٤١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص: ٣٠٠ – ٣٠١.

[٤٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٤٤٥. عند تفسيره لقوله تعالى:"ولا تكونوا أول كافر به" [البقرة: ٤١].

[٤٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ١٣.

[٤٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ١٤.

الليل والنهار وهما من مظاهر الأفق المسمى سماء، أن يُتبع ذلك وما سبقه من خلق العالم السفلي، بذكر خلق العوالم العلوية."[٤٥]

الاهتمام بالمقاصد: هذه المسألة هي من أهم مجالات الإبداع عند ابن عاشور، حيث برز اهتمامه بالمقاصد بطريقة لم أجدها عند غيره من المفسرين، ويمكن القول أن المقاصد أخذت عليه فكره وجل اهتمامه حين فسر الآيات ولذلك تراها غالباً في كل آية من تفسيره[٤٦]، حتى ليكاد نطلق عليه التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، فحين فسر قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾ [آل عمران: ٧] وبعد أن تكلم عن التشابه والإحكام في القرآن، قال: "إن من مقاصد القرآن أمرين: الأول: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين. والثاني: تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة – في كل زمان – لفهم تشريع الشارع، ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول، لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة. من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور"[٤٧]. وحين فسر قوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**

---

[٤٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ٢٠.

[٤٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٣٦٤. قال: لأن المقصود من ذلك أخذ العهد على أممهم.

[٤٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص: ١٨.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. قال:" إن هناك ثلاثة أنواع لأحوال البشر، هي: حالة الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع. **فالأولى: حالة الاحتياج:** هي المضمنة في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فالمضطر هو ذو الضرورة، أي الحالة المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول، وهذه مرتبة الحاجيات، فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة، بها قوام أوده ليست متصلة بذاته، مثل: الأقوات، والنكاح، والملابس اللازمة. والمعنى: أن المضطر إذا دعا لتحصيل ما اضطر إليه فإنه لا يجيبه إلا الله، بقطع النظر عن كونه يجيب بعضاً ويؤخر بعضاً. **وحالة البؤس:** هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وهذه مرتبة الضروري، فإن معظمها أو جميعها حفظ من تطرق السوء إلى مهم أحوال الناس، مثل الكليات وهي: حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسب، والمال، والعرض. والمعنى: أن الله يكشف السوء عن المسوء. وحالة الانتفاع: هي المشار إليها بقوله: ﴿**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ**﴾ [النمل: ٦٢] أي يجعلكم تعمرون الأرض، وتجتنون منافعها، وهذه مرتبة التحسيني. وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب، وهو ما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، وهو من مسالك العلة في أصول الفقه.[٤٨]

الاستدلالات: وأما استدلالاته فهي كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله في قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ [النبأ: ٨]:"وفيه استدلال على عظيم على قدرة الله و حكمته، وامتنان على الناس بأنه خلقهم، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون زوجاً ليحصل التعاون والتشارك في الأنس والتنعم قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا**

[٤٨] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٩، ص٢٨٩-٢٩٠.

تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩].[٤٩]

ومن المبتكرات المنهجية أن يأتي بنفي الدلالات المتوهمة، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ [النبا: ٢٣] يقول:"وليس فيه دلالة على أن لهذا اللبث نهاية، حتى يُحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود، وهو وهم، لأن الأخبار لا تنسخ، أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين، فإن ذلك ليس من شأن القرآن المكي الأول، إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدّين في أعمالهم."[٥٠]

تبيان أغراض السورة القرآنية: وأما اهتمامه بالأغراض فقد رأيناه واضحاً في العناوين الكثيرة للسور القرآنية، حيث يكتب أغراضها، ويقصد أغراض السورة التي بدأ بتفسيرها، فانظر: مثلاً جزء عم كاملاً يتناول كل سورة على حدة، ذاكراً أسماءها وترتيبها في النزول، وأسباب نزولها وعدد آياتها ومكية أو مدنية ثم بعد ذلك يذكر أغراضها، ولنأخذ مثلاً أغراض سورة النبأ، قال:"اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن، وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤالُ بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه. وتهديدهم على استهزائهم. وفيها: إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله. ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين. وصفة يوم الحشر إنذاراً للذين جحدوا به، والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث. وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء، ومن جملة الأشياء أعمال الناس."[٥١] وأحياناً يذكر لفظة الغرض حين يفسر الآيات، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**رَبِّ**

---

[٤٩] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ١٦.

[٥٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ٣٣.

[٥١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ٦.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]، والغرض من ذكر هذا إبطال اعتذار المشركين، حين استشعروا شناعة عبادتهم الأصنام التي شهَّر القرآن بها، فقالوا: ﴿**هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ**﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣]،[٥٢].هذه من المواطن التي أبدع فيها ابن عاشور، وجعلت منهجه في التفسير منهجاً إبداعياً خلت منه كتب التفسير على الأغلب. ولهذا كان أحياناً يستشهد بأقوال الشاطبي[٥٣] ليقرر مسائل اختلف فيها، مثل قضية التشابه والإحكام.

وأحياناً يقتبس مباشرة من الشاطبي، ليؤكد الفكرة التي يريد أن يبثها في ثنايا الكتاب، فيقول:"هذا وقد نقل أبو إسحاق الشاطبي في "الموافقات" عن جمهور الفقهاء والمتكلمين، أن أحكام الله تعالى معللة بالمصالح ودرء المفاسد، وقد جمع الأقوال الشيخ ابن عرفة في "تفسيره" فقال:"هذا هو تعليل أفعال الله تعالى، وفيه خلاف، وأما أحكامه فمعللة"[٥٤]. ولو أردت المزيد من ذلك الفن، فيمكنك الرجوع إلى تفسير الآيات التالية، وغيرها كثير[٥٥]. يقول الحسني: "وتبرز نظرية المقاصد في مباحث الشيخ الأصولية، مرتكزة على البحث عن مقاصد الشرع الكلية في المعاملات والآداب دون مقاصده في العبادات."[٥٦]

والشيء الجديد القديم في تفسير ابن عاشور أنه يتكلم عن وجوه الخطاب، ويبين من هو المخاطب في الآيات، ومن هو المكلف الذي يتوجه إليه الخطاب

---

[٥٢]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص: ٤٥.

[٥٣]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص: ١٧.

[٥٤]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص: ٣٧٥.

[٥٥]ابن عاشور، **التحرير والتنوير**،ج١، ص: ٤٤٥، و ج٢، ص: ٥٠٤، و ج٤، ص: ٢٠٤-٢٠٥.

[٥٦]إسماعيل الحسني، **نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور**، (الولايات المتحدة الأمريكية، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م) ص٤٣٠.

القرآني، فتراه يقول مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ...الآية**﴾ [آل عمران: ١٣]: "والخطاب في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ خطاب للذين كفروا، كما هو الظاهر؛ لأن المقام للمحاجَّة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحجة. فيكون من جملة المقول، ويجوز أن يكون الخطاب اللمسلمين، فيكون استئنافاً ناشئاً عن قوله: ﴿ستغلبون﴾؛ إذ لعل كثرة المخاطبين من المشركين، أو اليهود أو كليهما، يثير تعجب السامعين من غلبهم، فذكرهم الله بما كان يوم بدر"[٥٧]. وهذا شيء سبقه إليه القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وأورد مثالاً على ذلك، فحين فسر قوله تعالى: ﴿**فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٠٩] قال في تفسيره للبينات أنها المعجزات وآيات القرآن إن كان الخطاب للمؤمنين، فإن كان الخطاب لأهل الكتابين، فالبينات ما ورد في شرعهم من الإعلام بمحمد ﷺ والتعريف به."[٥٨] ولمزيد من بينات الخطاب في كتاب القرطبي يمكن الرجوع إليه.[٥٩]

نتيجة البحث

١. يعد كتاب الإمام ابن عاشور ظاهرة جديدة فريدة في عالم التفسير، وذلك لتميزه بخصائص منهجية وفكرية، قلما توافرت في تفسير آخر في عصره الحديث، حيث جمع بين القديم والحديث بصورة بارعة. والممعن في النظر

---

[٥٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص: ٣٥.

[٥٨] أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) ج٣، ص: ٢٤.

[٥٩] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٣، ص: ١٨٨. حيث قال في تفسير قوله تعالى:""عليكم فيما عرضتم" المخاطبة لجميع الناس. وحين فسر قوله تعالى:"حافظوا على الصلوات" البقرة: ٢٣٨. قال القرطبي: خطاب لجيمع الأمة. انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٣، ص: ٢٠٨. وغيرها كثير جداً.

يجد أن صاحب التفسير قد بذل جهداً، كيف لا وقد مكث في تأليفه أربعين سنة.

٢. إن تفسير ابن عاشور جمع بين كافة المناهج التي قام عليها التفسير، فقد جمع بين مدرسة التفسير بالمأثور، ومدرسة التفسير بالرأي، وما ترك التفسير اللغوي والاجتماعي والفقهي والبياني البلاغي، حيث أمكننا بقوة أن نصف تفسير ابن عاشور بأنه موسوعة شاملة لكل المدارس التفسيرية التي وجدت، ولربما البعض يعد هذا مثلبة على ابن عاشور، ولكن المتأمل المنصف يعتبر هذا منقبة جديرة بالدراسة والبحث.

توصيات البحث

١. أوصي المتخصصين والمهتمين بمجالات التفسير أن يكثروا من دراسة هذا التفسير الضخم، وأن يولوه اهتمامهم، حيث قلت الاهتمامات بهذه الدراسات.

٢. الاهتمام بهذه الشخصية على مستوى كتابة البحوث والدراسات الجامعية. لكثرة فوائدها.

٣. الابتعاد عن النمطية والقوالب الجامدة في تفسير القرآن. هذا هو الجوهر الحافز إلى الإبداع والتجدد. بينما النمطية هي جوهر التسلط الفكري والقهر الثقافي.

المصادر والمراجع

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. د.م: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. **الجامع لأحكام القرآن**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس. **البحر المديد**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

إسماعيل الحسني. **نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور**. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط.١، ١٩٩٥م.

رضوان جمال الأطرش. **رسالة في الإعجاز القرآني: موضوع فنون فواتح السور**. د.م: د.ت.

الصحبي العتيق. **التفسير والمقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور**. تونس: دار السنابل للثقافة والعلوم، ط.١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

محمد الطاهر بن عاشور. **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**. بيروت: مؤسسة التاريخ، ط.١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

محمد الطاهر بن عاشور. **أليس الصبح بقريب**. قرأه ووثق شواهده وقدم له: محمد الطاهر الميساوي. كوالالمبور: دار التجديد، ط.١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

محمد الفاضل بن عاشور. **التفسير ورجاله**. قدم له وذيله: محمد الحبيب بن خوجة. تونس: دار سحنون، ١٩٩٨/١٩٩٩م.

محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي. **سنن الترمذي**. تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، ط.١، د.ت.

http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/09/article30_01.shtml